المغنم المجهول

إذا اعتلجت بالنفس عاطفة قوية أثارت رواكدها واستفزت رواقدها فانكشف للإنسان من نفسه ما لم يكن يعرف، واختبر من قواه وطباعه ما كان خافيًا عنه فصحح نظره في الحياة، وتغيَّرت بين يديه حقائق الأشياء فرآها كما ينبغي له أن يراها؛ لأن معرفة النفس مقياس معرفة الوجود، ومن أخطأ تقدير نفسه لم يُصِب في تقدير ما حوله؛ لأنه يقيس الأشياء بمقياس مختل مجهول. والحب أقوى العواطف وأعمقها تفتيشًا في النفس، فهو ينبه فيها الإعجاب والعبادة والبغض والألم والغيرة والاحتقار والشفقة والقسوة وكل ما تشتمل عليه من حميد الخصال وذميمها، فإذا وقف الإنسان على حقيقة نفسه وقف على كل حقيقة يتاح له الوقوف عليها، وكان الجمال له معلِّمًا يستفيد منه ما لم يعلمه الجمال نفسه، ومنعمًا يهبه ما لا يملك، كالشموس والأقمار التي تضيء للعين المنظورات وهي بلا عين تبصر أو نفس تشعر، فإذا خسر الإنسان في الحب غرضًا أراده ربح منه غرضًا لم يرده، وكان ما جاءه من الربح عفوًا أكبر مما توخاه عمدًا، وهذا فحوى قولنا:

محضتني سر الحياة وسرها خافٍ عليك جليله والضامر

* * *

لهجت بحسنك ألسنٌ وخواطر وَصَبَتْ إليك جوانح ونواظر
وجرى غرامك في دمي فتوهجت قَطَراته، فهو الحميم الفائر
وشغلتني عما يُحَبُّ كأنما هذا الوجود على جمالك دائر

ونسيتُ فيك الخلْق، فهو كأنه ... لـمَّـا يـصـوره[1] الإلـه الـفـاطـر
لازمتني في غفوتي وتسهدي ... طـيـفٌ يـسـاور أو سـواد عـابـر
أُمسي وأُصبح ما بقلبي جانب ... مني، وفيه لك الجناب العامر
فإذا صحوتُ فأنت أول خاطر ... وإذا غفا جفني فأنت الآخر
أوَيُعبد الإنسان وا عجبًا له ... حبًّا، وما هو بالعبادة شاعر
كالدمية[2] الحسناء تعبدها وسيـْ ... ـيَان المسبِّح عندها والكاسر
لحسبت لو أني كلفت بدمية ... كلفي به، لَدَرَتْ بما أنا ساتر
ولدبَّ فيها، والحياة من الهوى ... روح، وأنطقها القريض الفاخر
يا من لديه من المحاسن كلها ... عوض، وما فيهن منه نظائر[3]
لو شابهتْك لكان لي في بعضها ... سلوى، فلم تُفْطَرْ عليك مرائر
ولأنت نور للمحاسن لا يُرى ... لولاك منها غامض أو سافر
ما النجم مثلك في افترار ضيائه ... كلا، ولا الزهر الأريج الناضر
والليل إن لم تسرِ فيه بوجهك الـ ... ـفضاح فهو جوًى ووجد زافر
واللب يثمر ما اجتلاك فإن تَبِنْ ... عنه حُلاكَ فكل لب عاقر
أغليتُ حسنك مذ علمت مكانه ... وكذاك يغلو لي العزيز النادر
لهفي عليك أكل حظي في الهوى ... شعر أرتِّله ولفظ ثائر
وتأوهٌ يفري الضلوع وحسرة ... تنفي الهجوع وأدمع تتقاطر؟
لو كان نظم الشعر يفثأ غلة ... لعفا الهيام جديده والدائر
لكنها النيران ليس بناقص ... منها اقتباس النور وهي سواعر
صعُبَ الجمال فليت حب صفاته ... صعبٌ، فيسلم إذ يراه الناظر
وأما وعيشك ما العيون قواصر ... عنه، ولكن الأكفَّ قواصر
الحسنُ أعجبُ من رآه فعانه ... ممن يجدُّ إليه وهو مغامر

---

[1] لما يصوِّره: أي لم يصوره حتى الآن.

[2] الدمية: التمثال أو الصنم.

[3] أي إنه هو يغني عن جميع المحاسن في الحياة، لكن محاسن الحياة لا تغني عنه، ولا نظير فيها لما عنده من شمائل الحسن.

أوَليس من عجبٍ جمالٌ باهر ... فينا ولا حبٌّ هنالك قاهر
أوليس من عجبٍ جبينٌ واضح ... يبدو ولا قلبٌ إليه يبادر
ونواعس الأجفان سوداواتها ... تُمسي، ولا جفنٌ عليها ساهر
الحب محيي النفوس وقاتل ... ومسرَّح للعاشقين وآسر
كفريسة العنقاء يقتحم السما ... وات العلية وهو عانٍ حائر[٤]
وإذا أردت من الحياة طلاقة ... في غير ما قيدٍ فما لك ناصر
الكون أعظم ما رأيتَ، مقيدٌ ... يمشي له في كل صوب زاجر
والله ألزمَ نفسه ميعادَه ... وهو المصرِّف للقضاء الآمر

* * *

يا من عليه تلهفي وتلددي ... قد جُرتَ فلتهنأ بأنك جائر
وأريتني ما لا ترى ووهبتني ... ما لست تملكه فما لك شاكر
محضْتَني سرَّ الحياة وسرُّها ... خافٍ عليك جليلُه والضامر
إن الضياء يُري العيون ولا يَرى ... والحسن يوقظ وهو غافٍ سادر
فلئن بخلتَ بما ملكت فحسبنا ... ما لست تملك، فهو عندك وافر
أنسيتني نفسًا وقد أذكرتني ... نفسًا، وخيرهما التي أنا ذاكر
لكشفتَ باطنها فقد أنكرتُها ... لما بدا منها القرار الغائر
فامنح وصالك أو قلاك فإنني ... راضٍ بكلتا الحالتين وصابر

يخافني وأخافه

وقائل لي: أخاف منك فقد ... تعلم في النفس ما أداريه
لم أُخفِ سرًّا إلا علمتَ به ... كأنني بالكلام مُبديه
فقلت إني أخاف منك فقد ... تجهل قلبي وما يعانيه
أبدي لك الحب غير كاتمه ... كأنني في الضمير أخفيه

[٤] مأسور.